الاعجاز البياني في كليات رسائل النور لسعيد النورسي
قراءة في التفسير البلاغي للقرآن عند الشيخ سعيد النورسي
تفسيره لآيات من سورة البقرة نموذجاً

محمد اليعقوبي
طالب دكتوراه في اللغة العربية
وآدابها
بجامعة "تربيت معلم" في طهران

بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنْ الرَحِيمْ

تمحورت قضية الاعجاز في الأساس على مفهوم التفوق الأدبي للقرآن على أنماط الكلام البشري، شعرا كان أم نثرا. صحيح أن الدراسة الأدبيّة .كما يري سيد قطب . يجب أن تسبق أية دراسة، لإنها تمكن الباحث من الوصول إلى النبع الأصلي «منبع السحر» الذي بهر العرب قبل التشريع و قبل النبوءات و قبل أي شيء آخر. القرآن هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الأعظم و له اثر كبير في نشأة العلوم العربية عامة، وعلوم النقد و البلاغة بصفة خاصة، فالطبيعة الأدبية البلاغية للقران هي التي أدهشت العرب، فآمن من آمن (عمر بن خطاب) و كفر من كفر (الوليد بن مغيره) . حيث يعد البعد الأدبي والبلاغي للقرآن الخصيصة المميزة له من حيث كونه نصاً مارس فعاليته التأثيرية على العرب.

نقف هنا عند جهود الشيخ النورسي إذ استعمل مفهوما متماسكا لتفسير الإعجاز من منظور بلاغي نقدي. كانت التفرقة بين مستويات الكلام إحدي القضايا الأساسية من كتاب رسائل النور، تلك المستويات التي تبدأ من مستوي الكلام العادي المألوف متدرجة إلى مستوي الكلام المعجز الذي يعلو على طاقة البشر الإتيان بمثله. و للتمييز بين طرفي مستويات الكلام لا بد من تحديد خصائص الكلام الأدبي تحديدا دقيقا. من أجل ذلك نراه لا يقتنع بالتفسيرات

التي طرحها أسلافه للإعجاز ولا يكتفي مثل البعض بالوقوف في منطقه «اللاتعليل». فهو لا يقتنع إلا بالتعليل المقنع والتفسير الكاشف ولا يقتنع بتصور أن الإعجاز واقع خارج النص، فهذا لا يفسر التحدي و كما لا يقتنع بأن الاعجاز قد وقع في صدق أخباره عن الماضي و الحاضر و المستقبل، فذلك يحصر الإعجاز في آيات من القرآن دون سائره و هو يعتقد . كعبد القاهر الجرجاني . أن الإعجاز كامن في بنية القرآن وفي كل آية من آياته وليس خارجها بأي حال من الأحوال و أن هذا الإعجاز ظاهر يمكن إكتشافه في كل عصر وفق قوانين يمكن إكتشافها من تحليل الكلام البليغ، و لا تخص معرفته على العرب الذين عاصروا الوحي كما لا تتوقف عليهم.

فرضيات البحث:

تعتمد البحث على فرضيتين إثنتين

١- بدل أن نحدّد و نعرّف نوعاً من إعجاز القرآن . الإعجاز البلاغي . بعرض القرآن على علم البلاغة و موازنته به، علينا أن نحدّد و نعرّف و نوازن علم البلاغة بالقرآن و نَعرُضَ علم البلاغة على ميزان و مقياس القرآن. مما يعني أن ظهور علم البلاغة .كخطاب مندمج و مندرج في القرآن الكريم . يتمحور حوله و يزداد علميته و قيمته كلما تكرّر هذا التمحور و الإعتماد. و يبرر هذه القضية بأهمية علمي المعاني و البيان و هامشيّة علم البديع.

٢- الأصل هو، أن علم البلاغة ليس وسيلة لتفسير القرآن و أداة لتبيينه، بل جزءً من الإعجازات في بطن النصّ القرآني.

مُقدمة :

ينطلق منهج البحث من حقيقة أن قِراءة النص الديني تتجلي في شكل خطابات تستوجب التحليل من أجل الكشف عن الدلالات الصريحة والمضمرة في الخطاب، سواء على مستوي المنطوق أو على مستوي المفهوم وصولاً إلى تحليل بنية الخطاب أسلوبياً. كما أن السياق البلاغي للخطاب في تفسير القرآن يمثل جزءاً من بنية دلالته الوصولة للحقائق إلى الناس.

كان الشيخ يعتمد في منهج تفسيره على إلافادة من علم البلاغة. و يحاول الإنطلاق من قراءة معاصرة لِلإنجازات التراثية فيها وفي علم اللغة؛ خاصة الإنجازات ذات الطابع المتقدم. والهدف الأساس من هذا البحث هو التعّرف على النص التفسيري و أسلوب التفسير والتعرف التطبيقي، العملي على القضايا و النكات البلاغية و الأدبية وعلاقتها بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في تفسيره. حيث بني النورسي جزءاً من تفسيره على مذاهب الأدب و البلاغة للكشف عن جمال القرآن و بلاغته و سحر بيانه. فقد إمتاز الشيخ بإلمامه بلغة القرآن و الإحاطة بعلومها. ولذا يعد تفسيره من التفاسير البلاغية و الأدبية التي تتناول عدة آيات و سور من القرآن الكريم.

يفسر الشيخ القرآن تفسيراً تربوّياً إرشادياً يستعرض كثيراًمن الموضوعات السائدة في هذا العصر. يركز على قضية الإيمان، إذ إستهدف أن يكون تفسيره أداة لرفع درجات اليقين، كما إستهدف تزويد القاريء بفهم وإدراك صحيحين للقرآن. يسعي في طيات كتبه إلى التحريض على التفكيرفي آيات القرآن المتضمنة لِإسرار الخلق و ظواهر الطبيعة. إلا أنه يعتمد كثيراً على تفسير الكشاف للزمخشري و يهتم كثيراً بالكشف عن النواحي البلاغية للقرآن، وسرّ اعجازه في نظمه و أسلوبه، خاصة في ابواب التقديم و التأخير و الإيجاز و التمثيل و التشبيه و الإستعارة كما و يهتم بإظهار المعاني الدقيقة التي تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، و قد تناول المعني لا في إطناب ممل و لا في إختصار مُخل متناولاً الآية بالشرح و الإيضاح في أبحاث علمية مستفيضة، مما يجعل "كليات رسائل النور" بمجلداته الخمس من خيرة التفاسير و الكتب الد ينية الهادفة إلى الإحياء الإسلامي، وذلك: بإزاحة الفجوة العميقة بين مسلمي العصر الحاضر و القرآن الكريم. لإنقاذ إيمان المسلمين في عصر الصراع الإعلامي الرهيب.ولإيصالهم إلى الإقتناع الكامل بإعجاز القرآن من خلال توضيح المهمة العلمية والفكرية والإجتماعية لهذا الكتاب في تربية الجيل المسلم تربية قرانية إسلامية كاملة، ببيان معالم هذا الطريق الذي يجب على المسلمين سلوكه و بتصديه لجميع الشبهات التي أثارها الأعداء حول الإسلام و دراستها دراسةً علميةً رصينةً.

منهج الأستاذ في التفسير و تبيين آيات القرآن

يقول "محسن عبدالحميد" : لقد إستطاع النورسي أن يصقل موهبته الفذة بدراسة العلوم الإسلامية و الفلسفات القديمية و العلوم الإنسانية و العلوم الصرفة المعاصرة، زيادة على إطلاعه الواسع على الأدب و البلاغة العربية من كتب أمثال "الجاحظ" و "الزمخشري" و"السكاكي" لاسيما الكتب النحوية للبلاغي الكبير الإمام "عبدالقاهر الجرجاني" حيث آمن بنظريته المشهورة في النظم و أعجب بها أيما أعجاب (النورسي، ٢٠٠٨. ٥ /٢). يظهر لمن يلقي نظرة فاحصة على "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، أن المبدأ الغالب عليه، كان تبيين ما في القرآن من الثروة البلاغية، إذ حرص النورسي على أن يبرز في حلة بديعة جمال أسلوب القرآن و كمال نظمه. أما منهجه فهو الإبتداء بالشّرح و البيان و التفسير و نقل الأقوال و الإحتجاجات و الرّد على من خالف القرآن، ثم يتناول النكاتَ البلاغية و الأدبية فيه، فمن أهم مميزات هذا التفسير :

١– بيان ما في القرآن من ثروة بلاغية، جعل العرب يعجزون عن الإتيان بمثله و إيراده أثناء التفسير لضروب الإستعارات و المجازات و الأشكال البلاغية الأخري ومثاله قوله : فأعلَم أن ربط " ختم " في آية " ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة " (بقره ٧) ب " لا يؤمنون" وتعقيبه به، نظير ترتّب العقاب على العمل. كأنه يقول لما أفسدوا الجزء الإختياري و لم يؤمنوا ،عوقبوا بختم القلب و سدّه. ثم لفظ " ختم " يشير إلى إستعارة مركبة تُؤمي إلى إسلوب تمثيلي يرمزإلي ضرب مَثَلٍ يصور ضلالتهم؛ إذ المعني فيه منع نفوذ الحق إلى القلب. فالتعبير بالختم يصور القلب بيتاً بناه الله تعالي ليكون خزينة الجواهر، ثم بسوءِ الإختيار فسد و تعفن و صار ما فيه سموماً ،فَأغلِق و أمهر لِيجتَنَب. (النورسي،٢٠٠٨. ٥ /٨٦).

٢– يتعرّض المؤلف في هذا التفسير لوضع كثير من أصول الدراسات البلاغية و اللغوية، فنراه يتحدّث عن موسيقي اللفظ و يتعرض للموازنة اللغوية بين لفظة و أخري و يشيرُ إلى إيحاءات اللفظة و يتحدث عن التقد اللغوي للكلمة و ما جري فيها من الإتساع، ومثال ذلك قوله : تأمَّل في آية " و لئن مَسّتهم نفحة من عذاب رّبك " (سورة الأنبياء، ٤٦) المسوقة للتهويل المستفاد من التقليل ، بسر إنعكاس الضد من الضد. أفلا تري التشكيك في " إن "كيف

يمدالتقليل ، و المسّ بدل الإصابة " في مَسّت "كيف يشير إلى القلة و التروّح فقط، و المرتية و التحقير في جوهر و صيغة و تنوين " نفحةُ "كيف تلوّح بالقلة، والبعضية في "من" تُؤمي إليها، و تبديل النكال بال "عذاب" كيف يرمز إليها، والشّفقة المستفادة من ال " ربّ" كيف تشير إليها، و حتي؟! .... فكلّ يمد المقصد بجهته الخاصة. (المصدرالسابق .١/ ٤٥).

٣- يحاول تفسير الآيات في ذوق أدبي خالص ببيان الأهداف الكلية التي ترمي إليها الآيات، ومثاله قوله : (ذلك الكتابُ لاريب فيه، هدي للمتّقين) وانظر الإشارة في (ذلك) المختصة بالرجوع إلى الذات مع الصفات لتعلم أنها كما تفيد التعظيم – لِأنها إما إشارة إلى المشار إليه ب "ألم" أو المبشر به في التوراة وَالإنجيل كذلك تُلوّح بدليلها؛ إذ ما أعظم ما أقسم به! وما أكمل ما بشّر به التوراة و الإنجيل! ... ثم أمعن النظرفي الإشارة الحسية إلى الأمر المعقول لتري أنها كما تفيد التعظيم وَ الأهمية؛ كذلك تشير إلى أن القرآن كالمغناطيس المنجذب إليه الأذهانُ ثم تفكر في البُعدية المستفادة من "ذلك" إذ أنها كما تفيد علو الرّتبة المفيد لكماله؛ كذلك تُؤمي إلى دليله بأنه بعيد عن ما سلك عليه أمثاله. ثم تدبّر في "ال" (الكتاب) لِأنها كما تفيد الحصر العرفي المفيد للكمال؛ تفتح باب الموازنة، و تُلمّح بها إلى أن القرآن كما جمع محاسن الكتب قد زاد عليها فهو أكملها. (المصدرالسابق . ١ /٤٦).

٤- الأخذ بالباطن الذي يوافق الظاهر من الآيات و حقائق الشرعية. و التأكيد على أن المقصود هو الظاهر بعكس ماذهب إليه البعض من أن المقصود هو الباطن الذي لا ينالُهُ فهم أهل الظاهر. و قد نعت المفسر هؤلاء بمناقضة ظواهرالدين و حكم العقل و منهم بعض المتصوفة و الباطنية. يقول عن سؤالٍ في هذا الموضوع: إن " محي الدين بن عربي " قد قال : " إن مخلوقية الروح عبارةُ عن إنكشافها "

أخي: إعلم أن محي الدين بن عربي لا يخدع و لكن ينخدع، فهو مهتدٍ، و لكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه. فما رآه صدق و صوابٌ و لكن ليس هو الحقيقة ؛ نعم إنّ الروح من حيث الماهية قانون أمري: ولكن أَلبسَت وجوداً خارجياً، فهي ناموس ذوحياة، و قانون ذو وجود خارجي. فالشيخ محي الدين، قد نظر إلى الروح من حيث ماهيتها فحسب، و يري الأشياء خيالاً حسب مشرب " وحدة الوجود " ؛ و لما كان الشيخ قد أنتهج مسلكاً مستقلاً و

كان صاحب مشرب مهم وله كشفيات و مشاهدات خارقة فإنه يلجأ بإضطرار إلى تأويلاتٍ ضعيفة و تكلّف و تمحّل ليطبّق بعض الآيات الكريمة حسب مشربه و مشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة و يجرحها. (المصدرالسابق .٣/ ٤٨). كان الأستاذ النورسي في صفحات ٥٦ و ٤٣٢ من هذا المجّلد من كتابه يشير إلى أن المتصوفين و الباطنيين يناقضون ظواهرالدين، يحرّفون بعض الحقائق الإسلامية بتأويلات خاطئة ويمضون غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالفون القواعد الثابتة للدّين.

٥- يتعرّض في تفسيره لبعض القضايا العقائدية و الكلامية مثل: أفعال العباد، و مسألة الجبر و الإختيار، والرؤية و الإسلام و الإيمان، و غيرها من المباحث. في مقدمة تفسيره لِلآية السابعة من سورة البقرة حول الجبر و الإختيار يقول: نحن معاشر أهل السنة و الجماعة نقول: يا أهل الإعتزال ! إن العبد ليس خالقاً للحاصل بالمصدر كالحاصل من المصدر، أي ليس خالقاً لِلأثر الحاصل بالمصدر، و هوالذي يطلق عليه الكسب، بل هو مصدر المصدر فقط، فليس بيد العبد إلا الكسب؛ إذ لا مؤثر في الكون إلا الله، والتوحيد هكذا يقتضي. ثم نقول يا أهل الجبر! ليس العبد مضطراً بل له جزء إختياري بالتحليل لا يظهر منه إلا الجبر؛ قيل لكم: أولاً : إن الوجدان والفطرة يشهدان بين الأمر الأختياري والأظطراري اَمراً خفياً فارقاً، وجوده قطعي (النورسي .٥ / ٨٠ و ٨١). كان يهتم باللفظ و دوره في المعني فلذا نراه يسخّر اللّغة تسخيراً بارعاً صحيحاً لخدمة القرآن. ومما يجدر ذكره أن المؤلف يعالِج البحوث البلاغية والنحوية، من حيث أنها مقصودة بالذات لأن هذا النوع من النظم و النسق في البلاغة و إستعماله ذاتيا في آيات القرآن الكريم بنفسه، يبين إعجاز القرآن، و ليست البلاغة للقرآن فقط وسيلة للتفسير، بل هي بنفسها إعجاز باطني و ذاتي في آيات القرآن.

يجعل الشيخ لِلآيات تفسيراً له أبعاد ثلاثة :

١- اللغويات: حيث يتناول الأوجه الهامة من البلاغة و النحو و الإعراب.

٢- التفسير و البيان: يقدّم صورة شاملة لِلآيات مشيراً لما ورد في معناها من القرآن و صحيح الأحاديث.

٣- فقة الحياة و الأحكام : يبرز مايستنبط من الآيات بما يتصل بشؤون الحياة للعمل و التطبيق.

يمتاز منهج المؤلف في تفسيره ببيان الجوالعام لمجموعة من الآيات و ذكر تناسبها مع ما قبلها إن كان لها تناسب أو ذكر المباحث الكلية لِلآيات، كما يتطرق المؤلف بمناسبة الآية إلى بحوث مستقلة ،إ شتملت عليها الآية كالبحث الأخلاقي أو الكلامي أو الروائي أو الإجتماعي أو الفلسفي.

البلاغة كجزءٍ باطني من إعجاز القرآن و قراءة في نماذج من تفسير النورسي:

الإعجاز البلاغي وجه من الوجوه البارزة الواضحة في القرآن و هو مما يصلح أن يلازمه و يرادفه ما بقيت المعجزة، و قد كان سمته و صفته منذ أن سمعه العرب يوحي به إلى واحدٍ منهم (الكواز، ١٩٨٠: ٢٢). لو تتبعنا مناط الإعجاز في بيان القرآن لرَأينا وجوهاً عدة و صوراً جمة، فمن حيث النظم الفريد الملتئم المحبوك نري صورة عجيبة تعلو فوق آفاق البُلغاء، و تسمو على مناط فنهم ، و من حيث الموسيقي نري فنانيهم يتأثرون بالقرآن. و من حيث التصوير نري فناً عجباً يسحر اللب و يسيطر على منازع النفس و أهواءِ القلوب. هذا بالإضافة إلى ما في قصصه من فنون باهرة و ما في إتساق معانيه و إئتلاف أغراضه- في السورة الواحدة- من نظام مدهش رائع ، يسمو على قدرة البلغاء و يعلو على آفاقهم. (حصني محمد شرف، ١٩٧٠: ٢٦٣).

فالإعجاز البلاغي هو الذي ذهب إليه الأكثرون من علماءِ أهل النظر (الخطابي، ١٩٩٧: ٢-٣). إذ في نظم القرآن جزالة خارقة. و قد بين كتاب إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز من أوله إلى آخره هذه الجزالة و المتانة في النظم، إذ كما أن عقارب الساعة العادّة للثواني و الدقائق و الساعات يكمّل كل منها نظام الآخر، كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، و النظام الذي في مناسبة الجمل كلّ تجاه الآخر و البلاغة الخارقة في معناه و البداعة الخارقة في أسلوبه، لِأن أساليب القرآن الكريم غريبة و بديعة كما هي عجيبة و مقنعة، فلقد حافظ و ما يزال يحافظ على طراوة أساليبه و شبابيته و غرابته مثلما نزل أول مرة.

(النورسي، ج١، ٢٠٠٤: ٤٢٢). و لما كان الإعجاز في القرآن الكريم من حيث هو كلام الله عزّو جلّ، فالإعجاز في الكلام إذن، هو أن يؤدي المعني بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق. (الجرجاني، ١٩٨٤: ٤٤١) أي إن الإعجاز القرآني صفة عالية في الكلام، خارقة، تفوق ما تحتها من درجات، و مرتبة فضلي لا ترقي إليها المراتب، بينها و بين ما سواها ما بين الخلائق والمخلوق، و هذا مصداق قول النبي الكريم " فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ".

وقد سيطرالإعجاز البلاغي على مباحث المتكلمين في الإعجاز سواءً منهم من جعلوه الوجه الذي يصح به التحدي بالسورة الواحدة من القرآن، و يفسر موقف العرب، عصر المبعث، من المعجزة؛ أو الذين ذكروا مع اعجازه البلاغي غيره من وجوه الإعجاز الأخري التي لا مشاحة فيها، و إنما الخلاف في أن تنفصل عن إعجاز نظمه و بلاغته. (بنت الشاطي، ١٩٧١:٨٣) و من التأثير في النفس يأتي مفهوم الإعجاز البلاغي، ولكنه امر أشكل على العلماءِ المختصين به، كما أشكل على متذوقيه من قبل، ففي كيفيته يعرض لهم الإشكال، و يصعب عليهم منه الإنفصال، و لذلك صاروا إذ سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي إختص بها القرآن وعن المعني الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا : إنه لا يمكننا تصويره و لا تحديده بأمر ظاهر، نعلم مباينة القرآن غيره من الكلام و إنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده.(الخطابي، ١٩٩٧:٢١). يقول السكاكي : إعجاز القرآن يدرك و لا يمكن وصفه كاستقامة الوزن، تدرك و لا يمكن وصفها، و كالملاحة، و كما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت، و لا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلّا بإتقان على المعاني و البيان.(السكاكي ،١٩٣٧ : ١٩٦). إنّ معني التأثير في البلاغة ينسجم و طبيعة الإعجاز البلاغي، فليس تعجيز الناس بأن أمرهم الله سبحانه بإتباع الحلال و الإمتناع عن الحرام، و إنما أعجزهم بما إتصف به القرآن الكريم من البلاغة. حيث أعجزهم بتأثيره فيهم، فجعلهم صاغرين، مطيعين لِأوامره، مجتنبين لنواهيه، بل تركوا الأهل و المال، و عافوا ملذات الدنيا في سبيله. فالمقصود بالإعجاز البلاغي هذا التأثير الفائق الواقع في النفس، و عليه قال الخطابي: إن في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب و تأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً

غير القرآن منظوماً و لا منثوراً، إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللّذه و الحلاوة في حال، و من الروعة و المهابة في أُخري ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس و تنشرح له الصدور، حتي إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب و القلق و تغشاها الخوف و الفرق، تقشعر منه الجلود، فتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها و عقائدها الراسخة فيها(خطابي، ١٩٩٧: ٦٤). و قال : وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب و قرعا في النفوس، يربيهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا نوعاً من الإعتراف(المصدرالسابق ، ٢٥).

إن مفهوم الإعجاز البلاغي لا يعني الإقتصار على ما تضمه البلاغة من المعاني و البيان و البديع، و إنما تتجاوزه إلى كل أسباب التأثير في النفس تأثيراً لا يتَهيأ لبشر. و قد سبق الباقلاني إلى هذا حين رَدّ من أراد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي كانت تسمي بالبديع أو غيره و قال: إعلم أن الذي بيناه قبل هذا و ذهبنا إليه و هو سديد، و هو أن هذه الأمور تنقسم : فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمل له، و يدرك بالتّعلم، فما كان، كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به وإما مالا سبيل إليه بالتعّلم و التعمل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه. (أبوزهرة، ١٩٧٠: ٩٧).

لندرس نماذج من التفسير البلاغي للشيخ سعيد النورسي "آية ٦ سورة البقرة:" "إن الّذين كفروا سواءٌ عليهم أَ أَنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" (بقره ٦) عند تفسير هذه الآية يبدأ تفسيره بوجه النظم و يقول: إعلم إن للّذات الأحدي في عالم صفاته الأزلية تجليين: جلالي و جمالي. فبتجليهما في عالم صفات الأفعال يتظاهر اللطف و القهر و الحسن و الهيبة. ثمّ بِالإنعطاف في العالم الأخروي من عالم الآثار يتجلّي اللطف جنّة و نورا و القهر جهنم و ناراً. (النورسي ، ٢٠٠٤ .٥ / ٧٢) وبعد إيضاح مفصل و التبيسط فيها يتعرض للدلائل و الآثار البلاغية في الآية و يقول: إن قلت فلم لم يعطف هنا كما عطف في " إن الأبرار لفي نعيم و إن الفجّار لفي جحيم" قيل لك إن حسن العطف ينظر إلى حسن المناسبة و حسن المناسبة يختلف بإختلاف الغرض المسوق له الكلام. و لما إختلف الغرض هنا و هنالك، لم يستحسن العطف هنا؛ إذ مدح المؤمنين منجر و مقدمة لمدح القرآن، و نتيجة سيق له. و أما ذم الكافرين

فللترهيب لا يتصل بمدح القرآن.(المصدرالسابق ، ٧٢). عند ما نقارن تفسيره مع تفسير الكشاف نري تأثره بالزمخشري إذ يقول: لم قطعت قصة الكفار عن قصّة المؤمنين و لم تعطف كنحو قوله: " إن الأبرار لفي نعيم و إن الفجار لفي جحيم" و غيره من الآي الكثيرة؟ قلت ليس وزان هاتَين القصتين وزان ما ذكرت لِأن الأولي فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب و أنه هدي للمتّقين، و سيقت الثانية لِأن الكفار من صنعتهم كيت و كيت. فبين الجملتين تباين في الغرض و الأسلوب و هما على حد لامجال فيه للعاطف. (الزمخشري، ١٩٧٨:٤٦). في المقارنة بين التفسيرين فضلاً عن الإشتراكات نري النورسي يعطي نظرة جمالية و تفسيراً بلاغياً جديداً لِلآية بكلامه عن حسن المناسبة و تفاوتها ونري أنه يري الجماليات الباطنية للآية و كما أشرنا في الفرضيات لا يتولد الإعجاز من موازنته ومقارنته بعلمِ البلاغة بل حينما نتعمّق في الآية و تفسيرها نري إن الإعجاز موجودٌ كعضو داخلي و دون الإنفصال من جمالية و نسق الآية. فعلي هذا نستنتج أن قوانين البلاغة بوجوده في آيات القرآن و ظهوره في أكثر الآيات تُبرز علميتُها و مصداقيتها . ثم يسترسل بالكلام بالتفسير البلاغي و يقول : أنظر إلى اللطائف المندمجة في نظم أجزاءِ هذه الآية: فأولا إستأنس ب " إنَّ " و "الذين " فإنهما أجول و أسير ما يصادفك في منازل التنزيل. و لِأمرما أكثر القرآن من ذكر هما إذ معهما من جوهر البلاغة نكتتان عامتان غير ما تختص كل موقع. أما " إن " فإنّ من شأنها أن تثقب السطح نافذة إلى الحقيقة. و توصل الحكم إليها كأنها عرق الدعوي إتّصلت بالحق. مثلاً إنَّ هذا كذا . . . أي الحكم و هذه الدعوي ليست خيالية و لا مبتدعة و لا إعتبارية و لا مستحدثة، بل هي من الحقائق الجارية الثابتة و ما يقال من أن " إنّ " للتحقيق فعنوان لهذه الحقيقة و الخاصية. و النكتة الخصوصية هنا هي أن "إن " الذي من شأنه رد الشك وَالإنكار مع عدمهما في المخاطب لِلإشارة إلى شدة حرص النبي (ص) على إيمانهم. (النورسي.٥ / ٧٢ – ٧٣) كما نعلم فقد جاءَ الحكم مؤكداً ب " إن " و آثرالتعبير عنهم بالموصول، ليمكن و صفهم بالذي إستحقّوا عليه العقاب في الصّلة. كما إن إسمية الجملة مفيدة أيضا للتأكيد. و عبّر عن الإنذار بالفعل ليفيد فائدة لم يكن لتحصل لوَ عبّر عنها بِالإسم لِأَن الأصل سواءً عليهم إنذارك و عدم إنذارك أو إنذارك و عدم إنذارك سواءً عليهم. (المطعني، ١٩٩٢ : ٢٩٤). في هذه الآية يدرس و يبين النورسي بصورة وافية و شاملة الإستعمال البلاغي و البياني لكلمة إنَّ في بداية

الآية؛ و يظهر إعجاز القرآن من جهة أن له جامعية خارقة من خمس جهات في لفظه، في معناه، في أحكامه، في علمه و في مقاصده. لفظه يتضمن إحتمالات واسعة و وجوهاً كثيرة، بحيث إن كل وجه تستحسنه البلاغة و يستصوبه علم اللغة العربية، ويليق بسر التشريع. و في معناه لقد أحاط ذلك البيان المعجز، بمشارب الأولياء و أذواق العارفين و مذاهب السالكين و طرق المتلكمين و مناهج الحكماء بل قد تضمن في بطنه كلها. ففي دلالته شمول و في معناه سعة. فما أوسع هذا الميدان إن أَطَلَّت من هذه النافذة. و اما " الّذين " فاعلم أن " الذي " من شأنه الإشارة إلى الحقيقة الجديدة التي أحس بها العقل قبل العين، و أخذت في الإنعقاد و لم تشتد، بل تتولد من إمتزاج أشياء و تآخذ أسباب مع نوع غرابة. و لهذا تري من بين وسائط الإشارة و التصوير في الإنقلاب المجدد للحقائق لفظ " الذي " أسير على اللسان و أكثر دوراناً. فلما أن تجلّي مؤسس الحقائق و هو القرآن، إضمَحَلّ أنواع و نقضت فصولُها و تسكلت أنواع أُخر و تولّدت حقائق أخري. و اعلم أن الموصول كالألف و اللام يستعمل في خمسة معان أشهرها العهد. ف " الّذين " هنا إشارة إلى صناديد الكفر أمثال أبي جهل و أبي لهب و أمية بن خلف و قد ماتوا على الكفر.فعلي هذا في الآية إخبار عن الغيب ؛ و أمثال هذا لمعات يتولد منها نوع من الإعجاز من الأنواع الأربعة للإعجاز المعنوي. (النورسي. ٥ / ٧٣) نري في تفسير هذه الآية مقاربة واتجاه معرفية للنورسي حينما يتكلم من بطن معاني الآية و عن بلاغة كلمة الذين و إستعماله مقام الأسماءِ و يتأثّر عن الزمخشري في كلامه عن تناسب كلمة الذين، لِأن الزمخشري أيضاً حول كلمة الذين في هذه الآية يقول: يجوز أن يكون للعهد و أن يراد بهم ناس بأعيانهم كأبي لهب، و أبي جهل و الوليد بن مغيرة و أضرابهم. و أن يكون للجنس ، متناولاً كلّ من صمّم على الكفر، تصميماً لا يرعوي بعده. (الزمخشري، ١٩٧٨: ٤٧) و عند تفسيره البلاغي لكلمة كفروا، هكذا يستطرد: ثُمّ في إيراد "كفروا " فعلاً ماضياً إشارة إلى أنهم إختاروا الكفر بعد تبيين الحق فلذا لا يفيد إلانذار؛ و أما " سواءً " فمجاز من رد إنذارك كعدم الإنذار في عدم الفائدة أو في صحة الوقوع أي لا موجب لِلإنذار و لا عدمه. و أما "عليهم" ففيه إيماء إلى أنهم أخلدوا إلى الأرض فلا يرفعون رؤوسهم و لا يصغون إلى كلام آمرهم و فيه أيضاً رمز إلى أنه ليس سواء عليك، لِأن لك الخير في التبليغ، إذ (ما على

الرسول إلاالبلاغ). و أما (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) فالهمزة و أم هنا في حكم " سواءٍ حرفي " تأكيد لسؤال الأول أو تأسيس، نظراً إلى إقتسامها المعنيين المذكورين للمساواة. إن قلت فلِمَ عبّر عن المساواة بصورة الإستفهام؟ قيل لك إذا أردت أن تنّبه المخاطب على عدم الفائدة في فعلِ نفسه بوجه لطيف مقنع، لابد أن تستفهم، ليتوجه ذهنه إلى فعله فينتقل منه إلى النتيجة فيطمئن. ثم العلاقة بين الإستفهام و المساواة تضمنه لها؛ إذ السائل يتساوي في علمه الوجود و العدم و أيضاً كثيراً ما يكون الجواب هذه المساواة الضمنية. إن قلت لِم عبّر عن الإنذار في أنذرتهم بصورة الماضي؟ قيل لك: لينادي " يا محمد قد جّربت" فَقِس. إن قلت لِم ذكر " أم لم تنذرهم " مع أن عدم فائدة عدم الإنذار ظاهر. قيل لك كما قد ينتج الإنداز أصراراً،كذلك قد يجدي السكوت أنصاف المخاطب. إن قلت لِم أنذر بالترهيب فقط مع أنه بشير نذير؟ قيل لك: إذ الترهيب هو المناسب للكفر، و لأن دفع المضار أَولي من جلب المنافع و أشد تأثيراً و لأن الترهيب هنا يهزّ عطف الخيال و يوقظه لأن يتلقي و يجتني بعد قوله " لايؤمنون أبَشَّرتهم أم لم تُبشّرهم ".(النورسي ، ٢٠٠٨./٧٦)في تفسير هذه الآية لا يشير النورسي لإستخدام القرآن المصدرالمؤول و لا يجيب إجابةً بلاغيةً عن هذا السؤال، لماذا يستخدم القرآن المصدرالمؤول : و الجواب إن المصدرالمؤول أوالفعل يتيح صلاحية الكلام لإفادة إعتباراتٍ من شأنها أن تقوي المعني أو تجعله أنسب المقام. و من ذلك قوله تعالي: " أَوَلم يكفِهم أنا أنزلنا " و التقدير: أولم يكفهم إنزالنا " و قدرأينا أن المصدرالمؤول جعل الكلام صالحاً لدخول حرف التوكيد على الجملة. كما أن إعتبار التجدد و الحدوث المستفاد من الفعل هنا مطلوب. و قال في سورة البقرة: (وأن تصوموا خير لكم). بدل صيامكم ، لِأن الإستقبال مع التجدد و الحدوث داخل في الإعتبار هنا: إذا المقام، مقام بيان حكم شرعي إنما يطاع و يمتثل بعد ثبوت التشريع. (المطعني، ١٩٩٢ : ٢٩٥). هنا أيظاً يستفيد النورسي من تفسير الكشاف و يتأثر به في التفسير البلاغي لجزء من هذه الآية (أأنذرتهم أم لم تنذرهم).

الخاتمة والنتائج :

١. يعتمد النورسي في تفسيره على أدق قواعد علم البلاغة وسائرالعلوم التي لها علاقة بتفسير القرآن ويستجلي ويكشف الإعجاز المكنون في نظم الكتاب المجيد بطريقة بديعة وجديدة .

٢. هو يبحث عن أخفي مناسبات البلاغة الذي لا يكشف عادة إلا بالمجهرالمعنوي المركز في الدماغ البشري .

٣. لا نستطيع أن نلخص اعجاز القرآن فقط في نوع واحد من الإعجاز ونعتبره منفصلا عن سائر أنواع الإعجاز بل يجب أن يدرس الإعجاز البلاغي للقرآن في نسق نصيّ وفي علاقة عضوية ومنسجمة مع سائر أجزاء النص ،من الشكل والمضمون إلى اللحن والموسيقي والخطاب .ونري أن للنورسي هذا النوع من الإتجاه في تفسيراته.

٤. ليس علم البلاغة مقياسا وميزانا لتمييز الإعجاز البلاغي للقرآن بل الصحيح هو أن نعد القرآن مقياسا لعلم البلاغة ونوازن علم البلاغة على مقياس القرآن .

٥. يعتبر الإعجاز البلاغي كجزء لاينفك من النسق النصي في أي حال من الأحوال وفي النسق النصي يبرز كنوع من أنواع الإعجاز.

٦. في تراث الإعجاز البلاغي إتجاهات سلك فيها العلماء وهم يكشفون عن أسرار بلاغة القرآن وإعجازه ولا نستطيع أن نتصف كل أتجاهاتهم في سلك واحد وهذا الأمر يرجع إلى كثرة وجهات النظر و كثرة جماليات القرآن.

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- ابوزهرة ، محمد،المعجزة الكبري ،دارالفكر العربي، مصر ، ١٩٧٠.

٣- بنت الشاطي، عائشة عبدالرحمن ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرف ، دارالمعارف ،قاهرة، ١٩٧١ .

٤- الجرجاني ، السيد الشريف ، (علي بن محمد –٨١٦ هـ) التعريفات ، دارالشؤون الثقافية ،بغداد، ١٩٨٤.

٥- حفني ، محمد شرف ، إعجاز القرآني بين النظرية والتطبيق ، المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية ، الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٧٠.

٦- الخطابي ، حمد بن محمد بن إبراهيم ،بيان إعجاز القرآن ، تح .محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دارالمعارف ، مصر ، ١٩٩٧.

٧- الزمخشري ، محمودبن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، شركت صحافي نوين، تهران ،١٩٨٨.

٨- السكاكي ،(يوسف بن أبي بكر –٦٢٦ هـ) مفتاح العلوم ،ط١ ، مطبعة البابيُ الحلبي ، مصر ، ١٩٣٧.

٩- المطعني ، عبدالعظيم أبراهيم محمد ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٢.

١٠– النورسي ، سعيد ،كليات الرسائل النور ،ط٥ ، شركة سوزلر للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٨ .

Abstract

For the identification of the type Quran miracles ، eloquent and rhetoric miracles are the sort of miracles used and at the same time surveyed by Muslim researchers since long ago. Badiuzaman Saied nursi – i kurdi ، a Kurdish Muslim researcher ، has utilized the most precise rules under the eloquent and especially rhetoric subtleties and also other knowledge's having an organic relations with Quran and its hermeneutics interpretation. He uncovers the hidden miracles of Quran with a new and elegant approach in the composition of the sacred book of Quran. This article tries to indicate that a part of the force and aesthetics of

Quran can not be counted as a separate miracle; More over، It should investigated accurately in a situational context and in an internal organic relationship with other textual parts of Quran involving not only the form and content but also ton and address of it. Further more، the determining criterion of the eloquent miracles of Quran is not its rhetoric's; That is rhetoric's it self should be tested in the light of Quran and its solidarity should be decided and judged based on Quran’s textual context.